

الشكوى من الشقاء و الفقر و الظلم و الدّهر في شعر حافظ إبراهيم

علي بيراني شال^١، علي حسين غلامي يلقون آقاج^٢

الملخص

الشكوى تعبيرٌ عن هموم الإنسان الناتجة عمّا يعرض له من مشكلات الحياة الخاصة و العامة التي يواجهها، فينفجر بالشكوى مصوراً للآخرين مشكلته و يتبرّد الجنان و يقل غليان النفس. الشكوى غرض من أغراض الشعر و هي قديمة في الشعر العربي و من أوسع الميادين التي يرتادها خيال الشعراء منذ العصور السابقة. حيث شكوى الدّهر من أهمّ المضامين التي تناولها الشعراء في العصر العباسي و منها تكوين فن الدّهريات. نظراً للشكوى في العصر الحديث، نجدها عند عدّة شعراء هذا العصر و حافظ إبراهيم في طليعتهم. إنّه عاش فقيراً بائساً و تعاقبت عليه سلسلة من النكبات في حياته و كان لهذه النكبات تأثير شديد في نفسه حيث جعلته صاحب نفس شكّاء. إنّه يشكو من فقره و من فقر التّاس و يستهدف سوء سياسة الأجنبي كحادثة «دنشواي»، سلب خيرات البلاد، طعن الإنجليز على المصريين، الحروب التي أثارها الأجنبي في الشرق و... يجعل الشاعر شكوى الدّهر وسيلة للتنفيس عن معاناته في الحياة و يأخذ الدّهر أشكالا شتى في شكوايه بحيث يتنوّع الخطاب للدّهر عنده. إنّ الشكوى قد احتلت مكانة خاصة في أشعار حافظ. لهذا كلّها، حمل حافظ لواء الشكوى في عصره و صار شاعر الشكوى دون منازع. هذه المقالة تحاول التركيز على الشكوى من الشقاء و الفقر و الظلم و الدّهر عند حافظ و تبيين هذه المظاهر مع الإشارة إلى بعض أسباب هذه الشكاوى و يقوم هذا البحث على المنهج الوصفي.

المفردات الرئيسية: الشكوى، حافظ إبراهيم، الفقر، الظلم، الدّهر.

المقدمة

إنّ الشكوى فنّ من فنون الشعر العربي قديماً و حديثاً لأنّها ترتبط بالنفس البشريّة و نجدها في الشعر العربي من العصور السابقة و إذا تتبعنا شعر الشكوى في الأدب العربي القديم وجدنا

1. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة الخوارزمي «تربيت معلّم - طهران» Ali.piranishal@yahoo.com

2. ماجستير في اللغة العربية و آدابها بجامعة الخوارزمي «تربيت معلّم - طهران»

تاريخ استلام البحث: ٩٠/١٠/٢٧ تاريخ قبول البحث: ٩١/١١/١٧

كثيراً من الشعراء أصيبوا في آمالهم الاجتماعية والاقتصادية والعاطفية، فتمرّوا بالدنيا وأهلها أمثال الشنفرى والمنتبي وابن نباتة المصري... حتى نصل إلى شعراء العصر الحديث و نرى شعر الشكوى عند أبناء هذا العصر؛ منهم حافظ إبراهيم.

نشأ حافظ يتيماً فقيراً و واجه سلسلة من النكبات في حياته ولم يذق طعم الراحة منذ صغره، فسيطرت على نفسه مسحة من التشاؤم والحزن، و استمرت عادة الشكوى طيلة حياته.

من دوافع اختيار هذا الموضوع؛ أولاً: روعة الأبيات التي أنشدها الشاعر في الشكوى ثانياً: سبق الشاعر من جملة شعراء عصره في الشكوى.

هذا البحث يدرس شعر الشكوى عند حافظ إبراهيم وفي بداية الأمر يشير إلى معنى الشكوى لغة و اصطلاحاً و يبيّن خلفيّة الشكوى في الأدب العربي ثم يبحث عن أسباب الشكوى عند حافظ و يظهر أهمّ مظاهر الشكوى عنده كالشقاء، الفقر، الظلم و الدهر، و ذلك من خلال المنهج الوصفي.

إنّ الهدف من هذا البحث دراسة المحركات و الأسباب الأساسية التي تجعل حافظ إبراهيم شاكياً و تبين أهمّ مظاهر الشكوى عند حافظ إبراهيم و دراسة المحاور التي تدور حولها هذه المظاهر و إظهار مكانة حافظ في شعر الشكوى في العصر الحديث.

الدراسات السابقة

هناك بحوث مختلفة حول حافظ وأدبه و في الكتب التي تناولت موضوع الشكوى قد نعثر على دراسات عدّة غير أنّها لا تستقصي جميع جوانب الموضوع بصورة شاملة إنّها لها إشارات خاطفة تفتقر إلى الشمول والمنهجية القويمة نجد ذلك مثلاً في كتاب «حافظ إبراهيم شاعر النيل» لعبد الحميد سند الجندي، ١٩٩٢م. يتحدّث عن نفس الشاعر الحزينة و بؤسه و يتعرض للشكوى مشيراً إلى بعض عللها الأصلية، المكتسبة منها والمركوزة في فطرة حافظ حيث جعلته شاكياً. ومن الكتب التي تقف عند ظاهرة الشكوى في شعر حافظ، كتاب «حافظ إبراهيم دراسة تحليلية لسيرته وشعره» لسعيد محمود عبد الله، ١٩٩٩م، يعبر المؤلف عن كثرة الشكوى في شعر حافظ حيث تتحول شكوى حافظ من ظاهرة لها أسبابها إلى طابع مميّز لشخصه و وتر أصيل في نفسه ويورد نماذج من شعره الشاكي وهناك كتاب عنوانها «حافظ إبراهيم شاعر

الشعب وشاعر النيل» ليوسف نوفل، ١٩٩٧م. يهتم المؤلف في هذا الكتاب بتقديم الشاعر من خلال سيرة حياته، فيعبر عن بعض شذائده حياته مع وضع مختارات من شعره الشاكي. من المقالات التي تناولت شعر حافظ؛ مقالة «ملاحم الفقر في شعر حافظ إبراهيم» لعيسى ألي-أوبكر (بجامعة إلورن قسم اللغة العربية، نيجريا، لا عدد، لاتا، الموقع:

(www.unilorin.edu.ng/publications)

التي تشير إلى بعض الأبيات الواردة في قصائد الشاعر في وصف فقره وحيية أمه في الحياة. هناك دراسات أخرى حول حافظ نحو: «الأخلاق في شعر حافظ إبراهيم» لفوزية بنت عبدالله بن عايش المنتشرى الشمراي (دراسة أعدت لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي بجامعة أمّ القرى، ١٤٣٠-١٤٣١هـ). يقوم صلب هذا البحث على جل الفضائل التي تحدث عنها حافظ في ديوانه إضافة إلى الرذائل التي حارها في شعره. اهتموا كثير من الدارسين الإيرانيين بحافظ و شعره نحو: «تأثير آراء محمد عبده في أشعار حافظ إبراهيم الاجتماعية» لبيروني شال و أميدوار (هذه المقالة مطبوعة في العدد الثاني عشر من مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية و آدابها، ١٣٨٨هـ.ش). تحاول هذه المقالة التركيز على جوانب تأثيرات محمد عبده في أشعار حافظ الاجتماعية ونجد مقالة «الموسيقى في الشعر الاجتماعي عند حافظ إبراهيم» لإبراهيم زارعي فر (هذه المقالة مطبوعة في العدد السابع من مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية و آدابها، ١٣٨٦هـ.ش) يعبر صاحبها عن اهتمام الشاعر باختيار الألفاظ ذات الدلالات الموسيقية في شعره خاصة الشعر الاجتماعي؛ فهناك دراسات كثيرة حول حافظ و أدبه اما حول الشكوى في شعر حافظ حسب وقوفي على معلومات أدبية نقدية فلم أجد دراسة وافية للموضوع و الذي يقام به في هذا البحث ولم يدرس من جانب الآخرين، هو استخراج الشكوى من الشقاء و الفقر و الظلم و الدهر من ديوان الشاعر وتبين هذه المظاهر حسب الموضوعات مع الإشارة إلى أسباب هذه الشكاوى.

يريد هذا البحث الإجابة على سؤالين أولاً: ما هي أهم عوامل إثارة الشكوى لدى حافظ إبراهيم؟ ثانياً: هل استطاع حافظ أن يعبر تعبيراً صادقاً عن آلامه و عما كان المصريون يعانون منه من الفقر و الظلم في شعره الشاكي؟ نظراً لهذين السؤالين هناك فرضيات في هذا البحث؛ منها: أولاً: إن أهم أسباب الشكوى لدى حافظ يرجع إلى فقره و نكبات حياته و إلى المسائل الاجتماعية و السياسية كظلم الأجانب. ثانياً: إن حافظاً بحكم آلامه في الحياة قد استطاع أن يعبر تعبيراً صادقاً عن أحزانه و عن الفقر و الظلم في المجتمع.

مفهوم الشكوى

الف: الشكوى لغة: جاء في لسان العرب «شكا الرجل أمره يشكو شكواً على فعلاً و شكوى على فعلى و شكاوة و شكاية: أظهر ما به من مكروه أو مرض و نحوه» (ابن منظور، ذيل مادة شكا) كما جاء في الصّاح «شكوتُ فلاناً أشكوه شكوى و شكاة و شكّية و شكاة: إذا أحررت عنه بسوء فعله بك و هو مشكوّ و مشكىّ و الإسم الشكوى» (الجوهري، ذيل مادة شكا) فحوى الشكوى أن يخبر الشاكي المشكوّ إليه عن مكروه أصابه و صاحبت معنى الشكوى، التّوجع و الألم .

ب: الشكوى اصطلاحاً: «الشكوى في الأدب منتوره و منظومه غرض من أغراضه، يعبر به الشاعر عن مصائب نزلت به أو يقومه لعله يجد من يشكّيه و يعينه على الخلاص ممّا يعانیه و هذا الغرض يُردُّ عند التّحليل إلى ثلاثة أغراض: فخر خفي و مدح شجّيّ و هجو جليّ. علّة امتزاج هذه الأغراض في الشكوى أنّها تحتاج إلى ثلاثة أشخاص: شاكي، مشكوّ إليه و مشكوّ منه. فالفخر الخفيّ يختصّ الشاكي و المدح الشجّيّ يستعطف به المشكوّ إليه و الهجو الجليّ يُقرّعُ به المشكوّ منه.» (طليمات و الأشقر: ٤٢٨ هـ، ص ٥٦٤) فإنّ الشاكي يهجو المشكوّ منه، و ينددُ بأذاه، و يمدح المشكوّ إليه، لأنّه يتوسّم فيه الخير و القدرة على إنصافه لكي يزيل عنه ما حدثَ به من ظلم .

«الشكوى ضربان: عامة و خاصّة. في العامّة يتحدّث الشاعر عمّا نزل بالناس عامّة من بلاء أنزله بهم الولاة أو العمّالُ و في الخاصّة يشكو الشاعر من أحواله و قلّة ماله و مرضه أو من الحكم عليه بغير العدل.» (طليمات و الأشقر، ٤٢٩ هـ، ص ٤٨٣)

الشكوى في الأدب العربي

الشكوى قديمة في الشعر العربي و من أوسع الميادين التي يرتادها خيال الشعراء و منذ أن أخذ الإنسان يعبر عن ذاته مفصّحاً عن حاجاته في الحياة و منذ أن أصبح يحس بوجوده في مجتمعه و يواجه مشكلات عصره بدأ يشكو و يصوّر للآخرين معاناته. لقد كان الشاعر من أرهف

الناس شعوراً و أبينهم تعبيراً على ترجمة ما يختلج في النفوس عامّة لا فى نفوسهم خاصة و أقدرهم على تصوير الهموم و رسم الأبعاد الحقيقية لأوضاعهم الذاتية و الاجتماعية.

«حينما نتتبع شكوى الشاعر الجاهلي نجد أن مصائبه كلّها في نظره مصدرها الدهر و لا شيء غيره، فهم ينسبون إليه كلّ ما يجلّ بهم من مكروه، فإن كان غير ذلك عزوه إلى الحظّ و الفأل، و ما انفكّ الشعراء الجاهليون يحدرون من الدهر مما يؤكّد أنّهم كانوا في الغالب دهريين فى معتقدهم» (الشهري، ص ٢١) و قد بيّن الله سبحانه و تعالى عقيدتهم تلك، فقال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَ مَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية، ٢٤). لقد سيطر خوف الدهر على وعي الجاهليين و وجدانهم و ما نزلت بهم ضائقة إلّا عزوها إلى الدهر جهلاً منهم بذلك. هذا هو زهير بن أبي سلمى يقول شاكياً من الدهر الذي لا ينصف في حكمه و إته يرمى دون أن يرميه أحد:

يا مَنْ، لِأَقْوَامٍ فَجَعَتُ بِهِم	كَأَنَّا مُلُوكَ الْعُرْبِ وَالْعُجَمِ
فَاسْتَأْثَرَ الدَّهْرُ، الْعَدَاةَ، بِهِم	وَالدَّهْرُ يَرْمِينِي وَ لَا أَرْمِي
يا دهرُ، قَدْ أَكْثَرْتَ فَجَعَتْنَا	بِسَرَاتِنَا وَ فَرَعْتَ، فِي الْعَظَمِ
وَ سَلَبْتَنَا مَا لَسْتَ مُعَقِّبَهُ	يا دهرُ، مَا أَنْصَفْتَ فِي الْحُكْمِ

(أبي سلمى، ١٢٣)

نرى الشكوى في العصر الإسلامي والأموي و يمكننا أن نقول «إن أشيع أنماط الشكوى فى العصر الأموي ما قاله الشعراء فى الولاة و الجباة، و أشيع ما قيل فى هذا النمط ما نظمه شعراء العراق فيمن تولّوا العراق.» (طليمات و الأشقر، ١٤٢٩هـ، ص ٤٨٥) كما شكّا عمرو بن أحمَر الباهلي إلى يحيى بن الحكم بن أبي العاص والى المدينة أيام عبد الملك بن مروان من ظلم سعاته و جُباته:

إِنِّي أَعُوذُ بِمَا عَاذَ النَّبِيُّ بِهِ	وَبِالْخَلِيفَةِ الَّتِي تَقْبَلُ الْعِذْرُ
مَنْ مُتْرَفِكُمْ وَأَصْحَابِ لَنَا مَعَهُمْ	لَا يَعْدِلُونَ، وَلَا نَأْبَى، فَتَنْتَصِرُ
فَإِنْ تُقِرَّ عَلَيْنَا جَوْرَ مَظْلَمَةٍ	لَمْ تَبْنَ بَيْتاً عَلَى أَمْثَالِهَا مَضِرُ
مَلَّوْا الْبِلَادَ، وَ مَلَّتْهُمْ، وَ أَحَقَّهُمْ	ظَلَمُ السُّعَاةِ، وَ بَادَ الْمَاءُ وَ الشَّجَرُ

(م.ن، ص ٤٨٧).

في العصر العباسي تعدّ الشكوى من الدهر من أهمّ المضامين التي تناولها الشعراء لذا تكوّن فن الدهريّات (آباد، ص ١٦٩) و باتوا لا تحدث حادثة إلاّ أضافوها إلى الدهر، فأثّست دائرة الشكوى كما يقول شوقي ضيف: «شاعت مع الفخر، الشكوى من الدهر و من الناس و الشكوى قديمة غير أنّها أثّست في هذا العصر سعة شديدة، لما شاع فيه من كثرة البؤس و الضنك في حياة الشعب، فضلاً عن الشعراء» (ضيف، ص ٥٩٦). هذا هو الشريف الرضي يشكو الدهر:

و لم أدري أنّ الدهر يخفضُ أهله إذا سكنت فيهم نفوس الضراغيم
وما العيش إلاّ فرحة إن هجرتها سطوت على الدنيا بسطوة حازم
ساصبر حتى يعلم الصبر أنني ملكت به دفع الخطوب المواجهم
و أخذ ثاري من زمان تعرّضت معارمه بيني و بين المغنم

(الشريف الرضي، لانا ٢ / ٣٨٢)

في العصر الوسيط نجد المجتمع مشحوناً بمصائب و حروب و « إنّ الحالة السياسيّة و الاجتماعيّة و الاقتصاديّة المذريّة التي عاشها معظم الناس و الشعراء منهم، بالإضافة إلى العوز و الفقر، والنزوح سعيّاً وراء الرزق، و غدر الزمان و جفاء الخلان و... صبغت الشعر بلون من المعاناة و دفعت بالشاعر إلى الشكوى» (يوسف، ص ١٨١) كما نرى البوصيري شاكياً من الفقر، يصف حاله و حال أولاده وقد أقبل العيد:

و أقبل العيد و لا عندهم قمح و لا خبز و لا فطره
فارحمهم إن أبصروا كعكة في يد طفل أو رأوا ثمره
تشخص أبصارهم نحوها بشهقة تتبعها زفره

(البوصيري، ١٤٢٨ هـ. ١١١)

إنّ الشكوى أخذت حيزاً كبيراً من صفحات الأدب الحديث كما أشار إليه بطرس البستاني: «شعر الشكوى كثير في شعر المحدثين فما نكاد نرى شاعراً إلاّ شاكياً حتى أصبح النواح صفة قوية تتميز بها منظوماتهم» (البستاني، ص ٢٦٥). نجد الشكوى في أشعار الكلاسيكيين و الرومانسيين «حيث تأثر الشعر العربي الحديث بالترعة الحزينة للشاعر الأوروبي الذي كان أكثر منه معاينة لطغيان الحضارة الماديّة» (الورقي، ١٩٨٤م، ص ٢٥٦) و من الشكوى في العصر الحديث، الشعر الذي نظمته البارودي في منفاه:

وكم مَهجّةٍ من زفرة الوجدِ في لظى وكم مُقلّةٍ من غزرة الدمعِ في دجن

وَ مَا كُنْتُ جَرَّبْتُ النَّوَى قَبْلَ هَذِهِ فَلَمَّا دَهْتَنِي كِدْتُ أَقْضِي مِنَ الْحُزْنِ
(البارودي، ١٩٩٨م، ص ٦٢٦)

أهمّ ميزات شعر الشكوى

لشعر الشكوى سمات تتجلى فيه أكثر مما تتجلى في الأغراض الأخرى و تعطىها شكلاً خاصاً. إن هذه السمات تتواجد في المضمون لا في الشكل؛ منها:

١: «إنّ الشكوى تختلف عن المدح و الفخر و باقي أغراض الشعر العربي لأنّها خالية من الافتعال، و تأتي مجردة من التصنع و التكلف، بل إنّها فوق ذلك تأتي ضاحّة بالمعانة و ممزوجة بالحزن و ممتلئة بالصدق و التعبير الحقيقي عن العواطف المشحونة بالتعب و نادراً ما تأتي الشكوى باردة متكلّفة» (العرفج، ٢٠٠٦م، ص ٤)، بل إنّ «لابدّ أن يتوفّر في التجربة صدق الوجدان، فيعبّر الشاعر فيها عمّا يجده في نفسه و يؤمن به» (هلال، ١٩٨٧م، ص ٣٨٧).

٢: إنّها تمتاز بعمق العواطف و ذلك يعود إلى ارتباط الشكوى بالألم و الهمّ و القلق و الامتعاض و الضيق و هذه المجموعة من المشاعر أفعال في القلب من العواطف المبهجة. (طليحات- والأشقر، ١٤٢٨هـ، ص ٥٩٠) كما نجد عمق العواطف في شكاوي حافظ من المشاكل الاجتماعية و السياسية. يشير طه حسين إلى صدق عواطفه و عمقها قائلاً: «لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه و لحياة شعبه كحافظ». (حسين، لات ص ١٤١)

٣: «إنّ الشكوى تمتاز بالواقعية و تشتمل على عناصر عقلية.» (الشهري، ص ٧) و نعلم أنّ حافظاً من شعراء المدرسة الكلاسيكية و هذه المدرسة تركز على العقل، فسيطر العقل و سمات الواقعية على أشعار حافظ و شكاويه خاصة .

٤: إنّها «تشتمل على معانٍ إنسانية و ما تحتويه من مشاهدة اجتماعية و سياسية فضلاً عن الجوانب الذاتية للشاعر.» (م.ن، ص ٧) و نرى هذه السمة جليّة في شكاوي حافظ من الأوضاع الاجتماعية و السياسية.

نبذة عن حياة حافظ إبراهيم

هو محمّد حافظ بن إبراهيم فهمي، قد اختلف الرواة في تاريخ ميلاده و الأرجح أنّه ولد سنة ١٨٧١م و كانت ولادته في سفينة ترسو على شاطئ النيل. (الفاخوري، ١٤٢٤هـ، ص

٥١٥). توفي أبوه و هو في الرابعة من عمره، فعاش فقيراً بائساً و انتقلت أمه إلى القاهرة، فكفله خاله و لم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمّة اليأس و ذلّة اليتيم فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش و ناقماً على الدهر. إنه أخذ ينشد الشعر في ذلك و كان شعره ساذجاً في سنّ الصبا و لكنّه يكنّ عاطفة حزينة. (إبراهيم، ٢٠٠٤م، ص ٧-٩). إنه رأى نفسه بدون عملٍ في بيت خاله و فكّر في عمل يدفع عنه شرّ المسغبة و فكّر في المحاماة لكنّه خاب أمله و أخفق في سعيه لأنّ مهنة المحاماة تطلب من صاحبه الدأب و العكوف على الدراسة (الجندي، لات، ص ١٩). راودته عند ذلك فكرة الحياة العسكرية و التحق بالمدرسة الحربية و أرسل إلى السودان و لم تطب له العيش هناك و ثار مع بعض الضباط فحوكم على الاستيداع. بمرتب ضئيل. إنه توفي سنة ١٩٣٢م (الفاخوري، ١٤٢٤هـ، ص ٥١٦) إنّ حافظاً في مضامين شعره تأثر بمحمد عبده و هذه التأثيرات ظهرت في مجال السياسة و التربية و التعليم و المرأة و الدعوة إلى حقوقها. (بيزاني، ١٣٨٨هـ.ش، ص ٣٧).

أسباب الشكوى عند حافظ إبراهيم

إنّ الشكوى حالة انفعالية تجاه مثير معين أو عدّة مثيرات و المثير المحوري للشكوى هو القلق و القلق تدور حول الاضطراب و عدم الاستقرار (أنس، ١٤٣٠هـ. ص ٢٢٠) و أهمّ مثيرات الشكوى لدى حافظ هو:

- ١: قد لمعت في حياة حافظ شدائد كثيرة منذ صغره، فقد مات أبوه و هو صغير، كما نشأ فقيراً إذ لم يترك له أبوه مالا، كما أنّه لم يوفق في عمله. (نوفل، ١٩٩٧م، ص ٢٠)، فهذه النكبات لها تأثير شديد في نفسه حيث جعلته صاحب نفس شكّاء.
- ٢: حافظ إبراهيم خلق أديباً قلق النفس و ليس له صبر على تحمل المشاق أو الاستقرار على حالة فيها شيء من العناء (الفاخوري، ١٩٨٦م، ص ١٤٠ نقلاً عن المقدسي، ص ١٦٢).
- ٣: الظاهر أنّ حافظاً لم يتّصل بسُلطان أو أمير طوال حياته و«حينما حاول أن ينال حظوة و مكانة عند الخديوي عباس بمدائحه في المناسبات المختلفة لم يبلغ المكانة التي كان يبتغيها و قد انضمّ هذا الحرمان من عطف الخديو إلى ألوان الشقاء التي عاناها في حياته». (الجندي، لات، ص ١٧٥).

٤: بعد اتّساع أفق حافظ الاجتماعي و لاسيما بعد صلته بالشيخ محمد عبده و انتشار شعره بين النَّاس، أخذ يدافع عن الشعب و حقوقه و يحمل على السلطة الغربية التي تتحكم في بلاده. «الفاخوري، ١٩٨٦م، ص ١٣٨»، فجاء شعره مصوراً آلام وطنه و لم يقدر على حبس الشكوى ممّا في المجتمع من الاحتلال والظلم والفقير و... فأكثر من الشكوى من هذه المشاكل.

فهذه الأحاسيس وتلك النكبات التي تعاقبت عليه جعلته يشكو من الشقاء، الفقر، الظلم و الدَّهر و ... و « يحمل لواء الشكوى في عصره» (الجندي، لات، ص ١٧٦) و «يصير شاعر الشكوى بغير منازع» (هيئة المعجم، ١٩٩٥م، ص ٤٤٥).

الشكوى في شعر حافظ ابراهيم

١: الشكوى من الشقاء

١-١: شقاء الشاعر نفسه: إنّ الحياة قست على حافظ و تعاقبت عليه سلسلة من النكبات و المصائب و هذه المصائب غدّت جرثومة الحزن التي تسللت مبكرةً إلى نفسه. هذه النفس الحزينة حفت فيها الأمان، فالشاعر متبرّم بالحياة لا يكاد يرى فيها خيراً، إنّ حافظاً أنشد أحياناً كثيرة يصوّر فيها شقاءه في الحياة شاكياً من سوء حظه:

يا لَقَومِي إنَّني رَجُلٌ حَرْتُ في أَمْرِي وَ في زَمَني
أحفاء أَشتكي وَ شَقِياً؟ إنَّ هذا مُنْتَهَى المِحَنِ

(إبراهيم، ٣/١)

إنّه رجل حائر في أمره و في زمنه و بسبب محنته و آلامه لا يعرف أيشتكى جفاء، أم يشتكى شقاء؟ نرى هذا الضرب من الشكوى في شتى مراحل حياته و عمله. إنّه لا يتقيّد في عمله بنظام كما قال أنيس المقدسي «الظاهر من أقوال المطلعين على سيرته أنّه لم يخلق ليكون مقيداً بعمل أو وظيفة تتطلب منه واجبات شاقّة». (الفاخوري، ١٩٨٦م، ص ١٤٠ نقلاً عن المقدسي، ص ١٦٢). حاول المحاماة و صار ينتقل من مكتب محام إلى مكتب محام آخر و كانت نتيجة ذلك الإخفاق في العمل، فحينما كان يعمل بمكتب محمد الشيمي بك المحامي بطنطا في أوّل شبابه قبل انتظامه في سلك المدرسة الحربية، يشكو من سوء حظه قائلاً بأنّه قد

أفرغ جرابَ حَظِّه طمَعاً فيما عند هذا الأستاذِ الخامي و قد سعى إلى أن ينال رزقاً عنده، و لكن جراه عاد إليه و هو مملوء بالحسرات و الوبال:

جِرابٌ حَظِّي قد أفرغْتُهُ طَمَعاً بِيابِ أستاذنا الشَّيْمي و لا عَجَباً
فَعادَ لي و هو مملوءٌ فقلْتُ ممّا؟ فقال من الحَسراتِ و أَحْرَباً

(إبراهيم، ٢٠٠٤م، ٢ / ١١٢)

بعد هذا العمل دخل حافظ الجيش و حينما سافر إلى السودان و لم تطب له الحياة فيها، لم يطمئن و أخذ ينفث الشكوى إثر الشكوى إلى أصحابه في مصر و أكثر من شكوى حَظِّه إلى أصدقائه و صورّ حاله كأنه رمى بنفسه على الحسرات و ورد في السراب و حمل نفسه الشقاء الذي ستحاسبه عليه يوم القيامة. هو بهذا العمل قد جنى عليه كجناية أبيه عليه لأنّه كان سبباً في ولادته كما جنى والد المعري عليه بولادته و لم يكن هو على أحد. (أبو بكر، لات: ص ٧) فيقول:

رَمَيْتُ بِهَا عَلَيَّ هَذَا التَّبَابِ و ما أوردْتُها غَيْرَ السَّرابِ
و ما حَمَلْتُها إِلَّا شَقَاءً تُقاضِيَنِي بِهِ يَوْمَ الحِسابِ
جَنَيْتُ عَلَيْكَ يَا نَفْسِي و قَبْلِي عَلَيْكَ جَنَى أَبِي فَدَعِيَ عِتَابِي

(إبراهيم، ٢٠٠٤م، ٢ / ١٢١)

يتألم الشاعر لأنّه لم يستفد من عزيمته في أيام شبابه. كم هام في الأرض في منتصف النهار و في شدة حرّ الشمس و كم خرج في الليلة المظلمة و التراب ناعس و مستقرّ في مكانه لقلّة من يسير عليه و الليل أشدّ هدوءاً من هدوء نفسه عند نوائب الدهر. إنّه مستمرّ على السرى استمرار هذه الكواكب، حتّى كأنّه واحدٌ منها و مع ذلك، لا يرى نفسه محظوظة لأنّ للمقادير يداً تبعده عن بلوغ آماله في الحياة. فأصبحت آماله منبوذة و أصبحت أموره معقدة (أبو بكر: ص ٦) كأنّها ذنب الضبّ الذي يضرب به المثل في التعقيد و من أمثالهم يقال «أعقد من ذنب الضب» (معلوف، ص ١٠٠١) فاسمع قوله:

إِنِّي احْتَسَبْتُ شَبَاباً بَتُّ أَنْفَقَهُ وَ عَزَمَةً شَابَتِ الدُّنْيَا و لم تَسْشَبِ
كَمْ هَمْتُ فِي البِيدِ و الأَرَامِ قَائِلَةٌ وَ الشَّمْسُ تَرْمِي أَدِيمَ الأَرْضِ بِاللَّهَبِ
وَ كَمْ لَبِسْتُ الدُّجَى و التُّرْبُ نَاعِسَةٌ وَ اللَّيْلُ أَهْدَأُ مِنْ جَأْشِي لَدَى التُّوبِ
وَ التَّجْمُ يَعْجَبُ مِنْ أَمْرِي و يَحْسِبُنِي لَدَى السَّرَى ثَامِناً لِلسَّبْعَةِ الشُّهْبِ

لَكُنِّيْ غَيْرُ مَحْدُوْدٍ وَّ مَا فَتَّتْ
وَقَدْ غَدَوْتُ وَّ آمَالِيْ مُطْرَحَةً
يَدُ الْمَقَادِيْرِ تُقْصِيْبِيْ عَنِ الْأَرْبِ
وَأُمُورِيْ مَا لِلضَّبِّ فِي الذَّنْبِ

(إبراهيم، ٢٠٠٤م، ٢ / ١١٧)

يوكّد الشاعر في موضع آخر سوء حظّه، و يعتقد بأنّ حظّه من الحياة هو القدح المنيح و هو سهم من سهام الميسر لانصيب له و لكن حظّ رفاقه، القدح المعلّى و هو أفضل سهام الميسر و هم يسعدون في حياتهم. فلو ساق القضاء إليه بالنفع لقام أخو القضاء و هو «القدر» معترضاً و مانعاً:

أَصَابَ رَفَاقِي الْقِدْحَ الْمَعْلَى
فَلَوْ سَاقَ الْقَضَاءُ إِلَيَّ نَفْعًا
وَصَادَفَ سَهْمِي الْقِدْحَ الْمَنِحَا
لَقَامَ أَخُوهُ مُعْتَرِضًا شَحِيحًا

(م.ن، ٢ / ١١٣)

كما قد اقتبس بيتين من جان جاك روسو¹ و ترجمهما تحت عنوان «النفس الحزينة» معبراً فيهما تماماً عن نفسه و كان صاحبهما كان يتحدث بلسانه حين قال ضارعاً إلى الله:

خَلَقْتَ لِي نَفْسًا فَأَرْصَدْتَهَا
فَأَمْنُنْ بِنَفْسٍ لَمْ يَشْبُهْهَا الْأَسَى
لِلْحُزْنِ وَالْبَلْوَى وَ هَذَا الشَّقَاؤُ
لَعَلَّهَا تَعْرِفُ طَعْمَ الْهِنَاءِ

(م.ن، ٢ / ١١٤)

يطلب نفساً أخرى لم تخالطها الهموم و يتلهّف إلى السعادة و الهناء. إذا لم يحقق آماله في الحياة و ما يريد من خفض العيش يعتقد بأنّ الحياة كلّها شقاء و ليس فيها أمرٌ يسير:

قَدْبَلَوْتُ الْحَيَاةَ فِي الشَّرْقِ وَ الْعَرِّ
بِ فَمَا فِي الْحَيَاةِ أَمْرٌ يَسِيرُ

(م.ن، ١ / ٢٣٣)

فتبرّم الشاعر من شقائه في الحياة و يتمنى لو طرحه أهله في طريق من طرق الهلاك، فيقول:

وَدَدْتُ لَوْ طَرَحُوا بِي يَوْمَ جِئْتُهُمْ
فِي مَسْبِحِ الْحَوْتِ أَوْ فِي مَسْحِ الْعَطْبِ

(م.ن، ٢ / ١١٧)

1. جان جاك روسو، هو الشاعر و الأديب الفرنسي ولد سنة ١٧١٢م و كانت وفاته في ٣ يولية سنة ١٧٧٠م. (إبراهيم، ٢ / ١١٤)

و يعتقد بأن الموت أهون تجرعاً على من تجرّع هذا العيش المرّ:
ذُقْتُ طَعْمَ الْأَسَى وَ كَابِدْتُ عَيْشاً دُونَ شُرْبِي قَذَاهُ شُرْبُ الْحِمَامِ

(م.ن، ١ / ٢٨٨)

١-٢: شقاء أبناء آدم أبي البشر: نرى الشاعر بعض الأحيان لا يشكو شقائه فحسب، بل يشكو شقاء أبناء آدم أبي البشر الذين تركهم ليعبث بهم الشقاء و تنهون بهم الأيام و تضع من شأنهم حتى أرغمت إبراهيم عليه السلام على أن يتلّ ابنه الذبيح للجبين و يشير إلى قوله تعالى في سورة الصافات ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ (الصافات: ١٠٢). و يذكر عناء يوسف النبي عليه السلام و أمره مع إخوته من القائه في الحبّ و التقاط بعض السيارة له و بيعهم إياه بيع العبيد. ثمّ يشير إلى ما أصاب المسيح عليه السلام من اليهود الذين أرادوا صلبه، فيقول:

سَلِيلَ الطِّينِ كَمْ نَلْنَا شَقَاءً وَ كَمْ حَطَّتْ أَنَامِلُنَا ضَرِيحاً
وَ كَمْ أَزْرَتْ بِنَا الْأَيَّامُ حَتَّى فَذَتْ بِالْكَبْشِ إِسْحَاقَ الذَّبِيحَا
وَ بَاعَتْ يُوسُفًا بِيَعِ الْمَوَالِي وَ أَلْقَتْ فِي يَدِ الْقَوْمِ الْمَسِيحَا

(إبراهيم، ٢٠٠٤م، ٢ / ١١٢)

حينما يرى الشاعر انتهى أمر الإنسان إلى هذا الحدّ من الشقاء يغلب التشاؤم على الشاعر و (كما أشرنا سابقاً) يظنّ أنّ الموت هو باب الخلاص و مستودع الرحمة، فيسخط على كل من أسهم في حفظ استمرار الحياة فوق الأرض و يذكر آدم (سَلِيلَ الطِّينِ) و هو أبو المنجب و بعد ذكره يتحوّل إلى نوح فهو المنقذ من الطوفان الذي أرسله الله عليهم و يرى الشاعر تلك النجاة حناية على البرايا:

وَ يَا نُوحاً جَنَيْتَ عَلَى الْبَرَايَا وَ لَمْ تَمْنَحْهُمْ الْوَدَّ الصَّحِيحَا
عَلَامَ حَمَلَتَهُمْ فِي الْفُلِّ هَلًّا تَرَكَتَهُمْ فَكُنْتَ لَهُمْ مُرِيحَا

(م.ن، ٢ / ١١٣)

و يتحوّل من آدم أبي البشر و من نوح عليهما السلام إلى حواء التي ولدت الإنسان ثمّ أسلمته إلى صروف الزمان و نوائبه و تمنّى لو عطلت من الأولاد:

لَمْ تَلِدْنَا حَوَاءَ إِلَّا لِنَشْقَى لَيْتَهَا عَاطِلٌ مِّنَ الْأَوْلَادِ
أَسَلَّمْنَا إِلَى صُرُوفِ زَمَانٍ ثُمَّ لَمْ تُوصِحْهَا بِحِفْظِ الْوِدَادِ

(م.ن، ٢/ ١٣٣)

٢- الشكوى من الفقر

٢-١: **الفقر في حياة الشاعر:** إنَّ حافظاً عاش فقيراً و اقتحمته موجة البؤس. لذا نجده شاكياً من الإملاق طوال حياته في مصر أو في السودان. حينما عاش الشاعر في السودان تجرَّع كؤوس الحرمان، و صوّر ضيق حاله في رسائله إلى أصدقائه، و نجده قائلاً بأن مطاياه مقيدة بقيد الفقر في وادي الهموم و الأحزان و هو بعيد عن دياره و يقطع المفاوز المتسعة و يجوبها في طلب الرزق:

وَ لَكِنِّي مُقَيَّدَةٌ رِحَالِي بِقَيْدِ الْعُدْمِ فِي وَادِي الْهُمُومِ
نَزَحْتُ عَنِ الدِّيَارِ أَرْوَمُ رِزْقِي وَ أَضْرِبُ فِي الْمَهَامَةِ وَ التُّخُومِ

(م.ن، ١/ ١٦٥)

نرى في الأبيات التي أرسلها إلى أصدقائه من السودان أنه ينقم فيها على هذه الحياة المفعمة بالإملاق حيث سعيه المتواصل في طلب الرزق بلا جدوى و من كثرة سعيه تقرّحت قدماه، فصار الدّم لهما كالتعل. هذا الفقر المدقع سلبه أسباب قوته كما يعبر عنها بـ «قلم الإملاق ظفري»:

سَعَيْتُ وَ كَمْ سَعَى قَبْلِي أَدَيْبٌ فَآبِ بِخَيِّبَةٍ بَعْدَ اغْتِرَابِ
وَ مَا أَعْدَرْتُ حَتَّى كَانَ نَعْلِي دَمًا وَ وَسَادَتِي وَجَهَ الثَّرَابِ
وَ حَتَّى صَيَّرْتَنِي الشَّمْسُ عَبْدًا صَبِيغًا بَعْدَ مَا دَبَّعَتْ إِهَابِي
وَ حَتَّى قَلَّمَ الْإِمْلَاقُ ظُفْرِي وَ حَتَّى حَطَّ مَ الْمِقْدَارُ نَابِي

(م.ن: ٢/ ١٢٢)

و يصرّح على أنه شاعر فقير ذو آمال كثيرة، فيقول شاكياً:

وَ هَلْ أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ شَاعِرٌ كَثِيرُ الْأَمَانِي قَلِيلُ النَّشْبِ

(م.ن، ١/ ١٧٦)

حينما يغلب الفقر على الشاعر يرضى بقوت دون قوت النعام و هو من أحسن الطعام و إذا قلّ نصيبه من الخير و الرزق في حياته لا يشكو إلا إلى الله:

نَحْنُ نَرْضَى بِالْقُوتِ مِنْ هَذِهِ الدُّنَى يَا وَ إِنَّ بَاتَ دُونَ قُوتِ النَّعَامِ
وَ إِنَّ خَانَ قِسْمُنَا مَا شَكَّوْنَا لِسِوَى اللَّهِ أَعْدَلِ الْقِسَامِ

(م.ن، ١ / ٢٠٢)

٢-٢: **الفقر في المجتمع:** قد ذكر كثيرون ممن عاصروا حافظ إبراهيم أن نفسه كانت تنجذب إلى كل أعمال البر، فيدعو إلى إعانة البائس، أو كفالة اليتيم. «عبدالله، ص ٧٨». إن الشاعر في حديثه عن الفقر لا ينسى فقر المصريين، بحكم نشأته فيهم، فيعبر عن ضيقهم حينما الأجنب امتصوا في مصر كل خيراتها و يهتّم بالأيتام و يصوّر حياتهم التعسة طالباً من المصلحين رعاية الأطفال المشردين و إنقاذهم من الفقر، كما يشير إلى يتيمٍ بائسٍ لما يبلغ العاشرة من عمره، و يعبر عن جوعه و يشبهه جوعه بفراس له ظفر و ناب، فاسمع قوله على لسان هذا اليتيم:

وَ أَنَا ابْنُ عَشْرٍ لَيْسَ فِي طَوْقِي مُكَافَحَةُ الصَّعَابِ
لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِي سِوَى ذِكْرِ تَنَاسَاهُ الصَّحَابِ
أَمْشِي يُرْتَحِي الأَسَى وَ البُؤْسُ تُرْنِيحُ الشَّرَابِ
فَلَكُمْ ظَلَلْتُ عَلَى طَوْى يَوْمِي وَ بِيَتْ عَلَى تَبَابِ
وَ الجُوعُ فَراسٌ لَهُ ظُفْرٌ يَصُولُ بِهِ وَ نَابِ

(إبراهيم، ١ / ٣٠٢)

و يحذر مما يفعل البؤس بنفس الإنسان حتى يلقيه في مهاوى الضلال حيث لا يرى منه فرجاً:

رُبَّ بؤسٍ يُجِبُّ النَّفْسَ حَتَّى يَطْرُحُ المَرءَ فِي مَهَاوِي الضَّلَالِ

(م.ن، ١ / ٣١١)

فإنه داء شديد غالب و لو أعدّ طبيب لمعالجته :

شاع بؤسُ الأطفالِ وَ البؤسُ داءٌ - لو أتىحَ الطَّبيبُ - غيرُ عُضالِ ب

(م.ن، ١ / ٣١١)

الشاعر لم يأل جهداً في دعوة المصلحين إلى مساعدة الشعب على التخلص من هذه المشاكل، فيهتف لمواجهة غلاء الأسعار الذي أدى إلى ضيق العيش بالشعب حيث بات مسح الحذاء أمراً عظيماً و غدا الماكول كياقوت لقلته و قصد الفقير الصيام من كثرة جوعه:

أيها المصلحون ضاق بنا العي — ش و لم تُحسنوا عليه القياما
عزت السلعة الذليلة حتى — بات مسح الحذاء خطباً جساما
و غدا القوت في يد الناس كاليا — قوت حتى نوى الفقير الصياما

(م.ن، ١ / ٣١٦)

٣. الشكوى من الظلم

إنّ الحملة الفرنسية عند كثير من النقاد و المؤرخين هي بداية عصر النهضة و جاءت هذه الحملة سنة ١٧٩٨م وابتغت أهدافاً استعمارية (قدّورة، ٣٢٩). بعد هذا الاحتلال، جاءت حملة البريطانيين على مصر و اتخذوا إجراءات لاستعادة سيادتهم على مصر (م.ن، ٣٣٧). فنرى المجتمع في هذا العصر مشحوناً بحروب و ضغوط على المصريين من جانب الغربيين. و «كانت الأجواء الحياتية التي تسيطر على العالم العربي في عهد الدولة العثمانية المتصل بدء حركة النهضة يمكن أن نطلق عليها، أجواءً اجتماعية مزرية تتأرجح بين الفقر و الجهل إلى جانب الظلم من قبل الحكّام الذين كانوا يستغلّون من الأصوات الدينية و السياسات الاقليمية و العواطف القومية على حساب المعرفة و القيم الوطنية» (الحرّ، ص ٢٣). كان حافظ شاعر الشعب و شعره سجلّ لأحداث عصره و تتجلّى وطنيته و مواقفه الوطنية من الاستعمار آنذاك بوضوح في شعره. إنّه يشكو من ظلمهم و يدافع عن مصر.

٣-١- الشكوى من ظلم المحتلين

الف:حادثة دنشواي: حدثت حادثة دنشواي في ١٣ يونية سنة ١٩٠٦م و اهتز لها ضمير العالم كلّ جزعاً، فبادر حافظ إلى نظم قصيدة فيها. خلاصة ما جرى «أنّ ثمة ضباط الإنجليز خرجوا من معسكرهم لصيد الحمام في بلدة دنشواي، فأصاب رصاصهم بعض الأهليين، فجرى من ذلك اصطدام بين الطرفين و قتل بعض الضباط، فثارت نائرة اللورد كرومر و قضت المحكمة بإعدام أربعة من الأهليين و جلد ثمانية منهم. نفّذت الإعدام و الجلد على مرأى و مسمع من الناس» (الفاخوري، ١٤٢٤هـ، ص ٥٢٤). في هذه القصيدة يصبّ حافظ جام

غضبه على الإنجليز و يزري بهم و بما يدعون من الحضارة و الخدمات المزعومة التي قدموها إلى الشعب المصري فيقول شاكياً:

خَفَضُوا حَيْشَكُمْ وَ نَامُوا هَنِيئاً وَ ابْتَعُوا صَيْدَكُمْ وَ جُوبُوا الْبِلَادَا
وَ إِذَا أَعْوَزَتْكُمْ ذَاتُ طُوقٍ بَيْنَ تِلْكَ الرُّبَا فَصِيدُوا الْعِبَادَا
إِنَّمَا نَحْنُ وَ الْحَمَامُ سَوَاءٌ لَمْ نُغَادِرْ أَطْوَأَقْنَا الْأَجِيَادَا
لَا تَتَّظَّنُّوا بِنَا الْعُقُوقَ وَ لَكِنْ أَرشَدُونَا إِذَا ضَلَلْنَا الرَّشَادَا

(إبراهيم، ٢٠٠٤م، ٢/٢٠)

في هذا المقطع يخاطب الشاعر، الإنجليز من خلال سخرية لاذعة طالباً أن يقصدوا الصيد و يقطعوا البلاد و إذا فقدوا الحمامة المطوقة قاموا باصطياد شعب مصر لأن المصريين و الحمام سواء عندهم. ثم يخاطبهم أن يحسنوا القتل و العقاب و يطلب أن يعدلوا في الحكم مندداً بعدالتهم و بالحكم الذي صدر على المصريين بالقتل، فيقول:

أَحْسِنُوا الْقَتْلَ إِنْ ضَعَفْتُمْ بَعْفُو أَقْصِصُوا أَرْدْتُمْ أَمْ كِيَادَا؟
أَحْسِنُوا الْقَتْلَ إِنْ ضَعَفْتُمْ بَعْفُو أَنْفُوساً أَصَابْتُمْ أَمْ جَمَادَا؟
لَيْتَ شِعْرِي أَتِلْكَ مَحْكَمَةَ النَّفْ تَيْشِ عَادَتِ أَمْ عَهْدُ نِيْرُونَ عَادَا؟

(م.ن، ٢١/٢)

يشبه محاكمة أهل دنشواي بمحاكم التفتيش. تلك المحاكمة التي تعرف بالقسوة و اضطهاد الناس و مصادرة أملاكهم و قد عقدت في إسبانيا للعرب و يشبه جور الإنجليز و استبدادهم بجور نيرون الذي أحرق مدينة روما.

ب: سلب خيرات البلاد: حينما يشاهد الشاعر هذه الفظائع في مصر يبكي عليها و يشبه نفسه عند ذكر هذه الفظائع و المصائب يبطل شجاع يردد بين الموت و الحرب لأنه إذا ذكر مصر و معاناة المصريين اضطرب أمره بين إقدام عاقبته العقاب و إحجام يعقبه لدع الضمير. و حينما يرى فقر المصريين و هم يعيشون في أرض غنيّة بالذهب يعدّ الأجانب سبب هذه المعاناة، هؤلاء الأجانب الذين امتصوا كلّ خيرات مصر كما يمتصّ الإسفنج ما في الوعاء من الماء و قد استدرروا دون غيرهم ضرعها، فيبكي عليها قائلاً:

فَقَدَ عَدَتُ مِصْرُ فِي حَالٍ إِذَا ذُكِرَتْ
كَأَنِّي عِنْدَ ذِكْرِي مَا أَلَمَّ بِهَا
إِذَا نَطَقْتُ فِقَاعَ السَّجَنِ مُتَكَاً
أَيَشْتَكِي الْفَقْرَ غَادِينَا وَرَائِحُنَا
وَالْقَوْمُ فِي مِصْرٍ كَالِإِسْفَنَجِ قَدْ ظَفِرَتْ
بِالْمَاءِ لَمْ تَتْرُكُوا ضَرْعاً لِمُحْتَلِبِ
وَإِنْ سَكَتُ فَإِنَّ النَّفْسَ لَمْ تَطِبِ
وَنَحْنُ نَمْشِي عَلَى أَرْضٍ مِنَ الْهَبِّ؟
جَادَتْ جُفُونِي لَهَا بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ
قَرْمٌ تَرَدَّدَ بَيْنَ الْمَوْتِ وَ الْهَرَبِ

(م.ن، ٢/١١٨)

حالت ظروف حافظ أحياناً دون الجهر بكراهيته الإنجليز كما نرى في هذه المقطوعة. كان من الطبيعي أن لايجهر بكراهيته، متى كان الجهر و النطق مجلبة للشر. و قد كان روفائيل مسيحة مصيباً حين علل موقف حافظ من قضايا أمته في ضوء هذا العامل النفسى الهام حيث يقول: حقيقة الأمر أن وجدانه كان ميدانا لصراع عنيف بين الحرية فى القول و الجهر بما قديغضب منه السلطان و يهزّ عرش وظيفته و يقذف به إلى لجة الحياة التي لايقوى على مكافحتها و بين كتمان هذه التزعات التي قد تغضب منه السلطان» (عبد الله، ص ١٣٣ نقلاً عن مسيحة، ص ٤٢).

يوكّد الشاعر شكواه في موضع آخر قائلاً: إنّ هولاء المحتلين سلبوا ذهب مصر و المصريون في الجوع:

نَبِكِي عَلَى بَلَدٍ سَأَلَ التُّضَارَ بِهِ
لِلْوَافِدِينَ وَ أَهْلُوهُ عَلَى سَعَبِ

(إبراهيم، ١/٢٦٨)

احتكر المستعمر الشركات الوطنية مثل شركة قناة السويس و هذه القناة قد بقيت في يد المصريين تراثاً عن السلف و قد كانوا يأملون منها أن يكون صلة بينهم و بين العالم و أخوف ما يخافونه أن تنقطع هذه الصلة، فيقول:

فَيَا وَيْلَ الْقَنَاةِ إِذَا احْتَوَاهَا
لَقَدْ بَقِيَتْ مِنَ الدُّنْيَا حُطَاماً
وَقَدْ كُنَّا جَعَلْنَاهَا زِمَاماً
بُنُو التَّامِيزِ وَ انْحَسَرَ اللَّثَامُ
بِأَيْدِينَا وَ قَدْ عَزَّ الحُطَامُ
فَوَا لَهْفِي إِذَا قُطِعَ الزَّمَامُ

(م.ن، ٢/٥٧)

ج: طعن الإنجليز على المصريين: نجد الشاعر في موضع آخر يقول على لسان مصر و هي تبكي على حالها و تشكو من الإحتلال الإنجليزي و مما يمنّ به الإنجليز على المصريين من أن الإنجليز أفضوا المصريين و أصلحوا من حالهم، فيخاطب الشاعر عميد الدولة الإنجليزية و يشير إلى ما كتب ذلك العميد (اللورد كرومر) في تقريراته من صلاح حال مصر:

لَقَدْ كَانَ فِينَا الظُّلْمَ فَوَضَى فَهَدَّبَتْ حَوَاشِيَهُ حَتَّى بَاتَ ظُلْمًا مُنْظَمًا
تَمُنُّ عَلَيْنَا اليَوْمَ أَنْ أَخْصَبَ الثَّرَى وَأَنْ أَصْبَحَ المِصرِيُّ حُرًّا مَنَعَمًا
أَعَدَّ عَهْدَ إِسْمَاعِيلَ جَلْدًا وَ سُخْرَةً فَإِنِّي رَأَيْتُ المَنَّ أَنْكَى وَ أَلْمَا
عَمَلْتُمْ عَلَى عَزِّ الجَمَادِ وَ ذُنَّا فَأَغْلَيْتُمْ طِينًا وَ أَرَخَصْتُمْ دَمًا

(م.ن، ٢/٢٥)

إنّ الأجنب يفضلون عهد احتلالهم على ما قبله من العهود و لاسيما عهد إسماعيل الذي اتسم بالعبودية. إنّ الأجنب يمتنون على المصريين بأنهم قد أزالوا عنهم ما كان يحق بهم من مظالم قبل احتلالهم، من تسخير الناس و جلد ظهورهم. حينما يمتنون على المصريين لا يرى الشاعر طريقاً أمامه إلّا استخدام أسلوب تهكمي حيث يعبر عنهم بـ« المصلحين» و يصور المصريين ضعفاء يطلبون من المحتلين الرجاء و أيسر حقوق الإنسان و هو الوجود المقترن بالأمل:

أَدِيقُونَا الرَّجَاءَ فَقَدْ ظَمْنْنَا بَعَهْدِ المِصْلِحِينَ إِلَى الوُرُودِ
وَ مَنُوا بِالوُجُودِ فَقَدْ جَهَلْنَا بِفَضْلِ وُجُودِكُمْ مَعْنَى الوُجُودِ

(م.ن، ٢/٣٢)

د: عدم الجلاء عن مصر: إنّ الشاعر يصرّح بمملاته و تضايقه من الغرباء قائلاً: حتّام يستمر هذا الظلم و تمتّع الأجنب من خيرات البلاد و استثمار أموالها و المصريون يعانون من الفقر، و إلى متى تفوت فرصة المصريين في التمتع بالاستقلال، و أنّ هذا العيش لا يجدر بالأحرار:

حَتّامَ- وَ الصَّبْرُ لَهُ غَايَةٌ- لَعَيْرِنَا مِنْ بَعْرِنَا نَمْتَحُ؟
حَتّامَ- وَ الأَمْوَالُ مَشْفُوهَةٌ- نَمْتَحُ إِلَى مِصرَ مَا نَمْتَحُ؟
حَتّامَ يُمِضِي أَمْرِنَا غَيْرِنَا وَ ذَاكَ بِالْأَحْرَارِ لَا يَمْلَحُ؟

(م.ن، ٢/٩٦)

حينما يرى الشاعر خداع الأجانب و كثرة الوعود الكاذبة، يستبعد وقوع يوم جلاء الإنجليز من مصر و عن العديد من بلدان الشرق و يظن أن يوم جلائهم يقترب بيوم القيامة، إذا نضبت المياه في البحر و سقطت الشهب من السماء و يقول إن هذا الجلاء لن يقع إلا رجوع التاريخ و عاد الزمان:

وَ أَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّ يَوْمَ جَلَائِهِمْ وَ يَوْمَ نُشُورِ الْخَلْقِ مُقْتَرِنَانِ
إِذَا غَاضَتِ الْأَمْوَاهُ مِنْ كُلِّ مُزِيدٍ وَ خَرَّتْ بُرُوجُ الرَّجْمِ لِلْحَدَثَانِ
وَ عَادَ زَمَانُ السَّمْهَرِيِّ وَ رَبِّهِ وَ حُكْمٌ فِي الْهَيْجَاءِ كُلِّ يَمَانِي
هُنَاكَ اذْكُرَا يَوْمَ الْجَلَاءِ وَ نَبِّهَا نِيَامًا عَلَيْهِمْ يَنْدُبُ الْهَرْمَانِ

(م.ن، ٢/٥)

هـ: إدعاء الأجانب بالحياد: في جانب آخر يندد بإدعاء الإنجليز الحياد و عدم التدخل في الشؤون المصرية و يرميهم بالكذب و العذر بحيث يقتلون و يفسدون ثم يدعون الوداد و هم الدّ الخصام و ما هذا الحياد إلا لثام يضع الإنجليز على وجهه:

قُلْ لِلْمَحَايِدِ هَلْ شَهِدْتَ دِمَاءَنَا تَجْرِي وَ هَلْ بَعَدَ الدِّمَاءِ سَلَامٌ؟
سُفِكَتْ مَوَدَّتُنَا لَكُمْ وَ بَدَأْنَا أَنَّ الْحِيَادَ عَلَى الْخِصَامِ لِنَامُ

(م.ن، ٢/١٠٥)

و يشير إلى علم المصريين بما أعلن من الحياد، إن هو إلا مؤامرة على المصريين و هذه السياسة هي سياسة المماطلة و التسوية من جانبهم:

لَقَدْ طَالَ الْحِيَادُ وَ لَمْ تُكْفُوا أَمَا أَرْضَاكُمْ تَمَنُّ الْحِيَادِ؟
أَحَدْتُمْ كُلَّ مَا تَبْعُونَ مِنَّا فَمَا هَذَا التَّحَكُّمُ فِي الْعِيَادِ؟
بَلَوْنَا شِدَّةً مِنْكُمْ وَ لِينًا فَكَانَ كَلَاهُمَا ذَرَّ الرَّمَادِ

(م.ن، ٢/١٠٨)

لكنّ الباحث يقرّر لحافظ شجاعته التي أبدأها فيما نشر من شعره في هذه المقطوعة و ينفث الشاعر فيها ما اكتظ له صدره لسنوات طويلة من غيظ و كراهية.

و: الحروب التي أثارها الأجانب في الشرق: أحياناً نجد حافظ يتناول الحروب التي أثارها الأجانب في الشرق و منها حرب طرابلس. حينما رأّت إيطاليا أنّ إنجلترا و فرنسا صارتا صاحبتيّ النفوذ في مصر و تونس قويت أطماعها في طرابلس و لم تأت سنة ١٩١٢م حتّى أغارت إيطاليا على طرابلس تريد انتزاعها من تركيا.(م.ن:٢/٦٦). في هذه الكارثة الهائلة قتل الأجانب نفوساً كثيرة لا تعد و لا تحصى و حينما عجز الطليان عن الشجعان و الأبطال، قاموا بقتل النساء و الشيوخ و الأطفال و ذهبوا بالأيتام و المرضى و لم يرحموا أحداً:

مَادَتِ الْأَرْضُ بِنَا حِينَ انْتَشَتْ	مِنْ دَمِ الْقَتْلَى حَلَالاً وَ حَرَاماً
عَجَزَ الطُّلِيَانُ عَنِ أَبْطَالِنَا	فَأَعْلَوْا مِنْ ذَرَارِينَا الْحُسَامَا
كَبَلُوهُمْ، قَتَلُوهُمْ، مَثَّلُوا	بِذَوَاتِ الْحِدْرِ، طَاحُوا بِالْيَتَامَى
ذَبَحُوا الْأَشْيَاحَ وَ الزَّمَنَى وَ لَمْ	يَرْحَمُوا طِفْلاً وَ لَمْ يُبْقُوا غَلاماً

(م.ن،٢/٦٦)

يصرّح الشاعر بأنّ هذه الأعمال الشنيعة ، هي تخالف تعاليم الإنجيل و إنّ الأجانب بهذه الأعمال، كشفوا عمّا يضمرون للشرق من العداوة، فيقول شاكياً:

أَبْهَذَا جَاءَهُمْ إِنْجِيلُهُمْ	أَمراً يُلْقِي عَلَيَّ الْأَرْضِ سَلاماً؟
كَشَفُوا عَنِ نَيْبَةِ الْعَرَبِ لَنَا	وَ جَلَوْا عَنِ أَفْئِقِ الشَّرْقِ الظُّلاماً

(م.ن، ٢/٦٧)

نجد الشاعر في منظومة تمثيلية عقب قصف الأسطول الطلياني لمدينة بيروت انتقاماً من الأتراك؛ يقول على لسان جريح من أهل بيروت و هو يناجي بيروت، مدينته و يندد بالعدوان الطلياني الجبان:

بَـيروتُ لو أَنَّ حَـصماً	مَـشَى إِلَيَّ مَـشِيَتُ
أوداس أرضك باغ	لُدسـتـه و بَعِيـتـتـ
أوحل فيك عدو	مُنـازلُ ما اتَّقِيـتـ
لكن رماك جبان	لو بان لي لاشتَفِيـتـ

(م.ن، ٢/٧٠)

الجديد الذي نعثر عليه في موضوعنا هذا هو الشكوى من الأجانب. حيث الشاعر يستهدف المحتلين لعدة أسباب. الإنجليز الذين يشكلون قطب الرحي في شكوى شاعرنا الذي يندد بسياستهم و يشكو من تصرفاتهم و قلما نجد شاعراً قد شكوا من الأجانب و الإنجليز قبل حافظ إبراهيم.

٣-٢: الشكوى من ظلم الحكام المصريين

إنَّ عصر حافظ لم يكن مستقراً في كثير من جوانبه، بل كان يسوده بعض المنغصات التي تكدر صفوه. لذا تناول حافظ هذه القضايا في شعره و في جانبها لم يترك الحكام و الوزراء، هؤلاء الذين تشكو الأمة من سوء سياستهم. كقصيدته في عهد وزارة إسماعيل صدقي باشا و هو يشير فيها إلى المصائب التي تستهدف الأمة و بعضها من جانب هذا الوزير و بعضها من سوء سياسة محمد علام باشا و بعضها من جانب العمال، فيقول:

صَبُّوا البَلَاءَ عَلَى العِبَادِ فَصَفُّهُمْ يَجِبِي البِلَادَ وَ نِصْفُهُمْ حُكَّامُ
أَشْكُو إِلَى قِصْرِ الدُّبَارَةِ مَا جَنَى صَدَقِي الوَازِرُ وَ مَا جَنَى عِلَّامُ

(م.ن، ٢/١٠٥)

في موضع آخر حينما يرى الشاعر الأجانب، هؤلاء الذين يظلمون الأمة و يمتصون كلَّ خيرات مصر يلوم العثمانيين على تركهم المصريين لأقوام أجنبية:

يَا آلَ عَثْمَانَ مَا هَذَا الجَفَاءُ لَنَا وَ نَحْنُ فِي اللَّهِ إِخْوَانُ وَ فِي الكُتُبِ
تَرَكْتُمُونَا لِأَقْوَامٍ تُخَالِفِنَا فِي الدِّينِ وَ الفَضْلِ وَ الأَحْلَاقِ وَ الأَدَبِ

(م.ن، ٢/١١٩)

٤- الشكوى من الدَّهر

نرى هذا الضرب من الشكوى في مواضع مختلفة في ديوان حافظ، فأصبحت شكوى الدَّهر وسيلة للتنفيس عن معاناته و للتخفيف من وطأة آلامه. عند استخراج مظاهر الشكوى من أشعاره نجد أنَّ الدَّهر يأخذ أشكالاً شتى بحيث يتنوع الخطاب للدَّهر عنده و منها: «الدنيا، أبو الليل، الأيام، الزمان، السنة، العام.»

٤-١: **الدَّهْرُ**: الشاعر يشكو من الدَّهْرِ لأنَّه ترك الإحسان إليه و أهمله على الرغم من سعيه و يعتقد بأنَّ الدَّهْرَ سبب فشله في أمره:

لَا تَلْمُ كَفِّي إِذَا السَّيْفُ نَبَأَ صَحَّ مَنِّي الْعَزْمُ وَ الدَّهْرُ أَبَى
رُبَّ سَاعٍ مُبْصِرٍ فِي سَعِيهِ أَخْطَأُ التَّوْفِيقَ فِيمَا طَلَبَا

(م.ن، ٢/٧)

قد امتلأت نفس حافظ بالعقد بسبب آلامه و مصائبه، فيشير إلى أنَّ الدَّهْرَ لم ينصفه و الأدب جنى عليه و لولا أنَّه أثر الإحسان لهجر الأدب الذي كان سبباً في شقائه، فيأس الشاعر من الدنيا و يرى العيش في هذه الدنيا أحلاماً كاذبة، كأنه برقٌ حَلَبٌ يطعم النَّاسَ في مطره و هو يخلفهم و يقول:

عَقَّنِي الدَّهْرُ وَلَوْلَا أَنِّي أَوْثَرَ الحُسْنَى عَقَقْتُ الأَدْبَا
إِيهِ يَا دُنْيَا اعْبِسِي أَوْ فَابِسِمِي لَا أَرَى بَرْقِكِ إِلَّا حَلْبَا

(م.ن، ٢/٧)

٤-٢: **الدنيا**: يتحسّر الشاعر على أنَّ صروف الدنيا تنظر إلى النَّاسِ بنظرٍ غاضبٍ عليهم و يعتقد بأنَّ هذه الدنيا خدعتهم و تركتهم في النهاية وهم فقدوا عزَّهم، فلاجاه ولا مال ولا حلَّ يعزيهم في مصابهم:

فَلَمْ نَزَلْ وَصُرُوفُ الدَّهْرِ تَرْمُقُنَا شَزْرًا وَ تَخْدَعُنَا الدُّنْيَا وَ تُلْهِينَا
حَتَّى غَدَوْنَا وَلَا جَاهُ وَلَا نَشَبَ وَلَا صَدِيقٌ وَلَا حِلٌّ يُوَاسِينَا

(م.ن، ٢/١١٩)

٤-٣: **أبو الليل**: في موضع آخر يستخدم كلمة «أبوه» مشيراً إلى الدَّهْرِ حيث إنَّه أبو الليل. حينما يرى الشاعر شقوته في الحياة يظنُّ أنَّ الدَّهْرَ أوصى ابنه الليل بمحاربتة كما يوصى الآباء أبناءهم و يجرى الأبناء على سنن الآباء:

وَ اللَّيْلُ أَرشَدُهُ أَبُوهُ لَشَقَوِي وَ كَذَا البُنُونُ عَلَيَّ هَوَى الآبَاءِ

(م.ن، ١/٢٤٠)

٤-٤: الأَيَّامُ: تتحوّل التسمية في بعض أشعاره من «الدَّهر» إلى «الأَيَّام» و يرى الشاعر
تھاون الأَيَّام بالبشر حتّى أرغمت إبراهيم عليه السّلام على أن يتلّ ابنه الذبيح^١ للجئين و باعت
يوسف عليه السّلام و القت المسيح عليه السلام في أيدي الأعداء و جماعة اليهود الذين أرادوا
صلبه، فيقول شاكياً:

وَ كَمْ أَزَرْتُ بِنَا الأَيَّامُ حَتَّى فَدَتُ بِالكَبْشِ إِسْحَاقَ الذَّبِيحَا
وَبَاعَتُ يُوسُفًا بِيَعِ المَوَالِي وَ أَلَقْتُ فِي يَدِ القَوْمِ المَسِيحَا

(م. ن، ١١٢/٢)

فأفنت مصائب الأَيَّام صبره و جعلته الحادثات ساهراً بحيث نام الطائر المغرّد و الشاعر
ساهر:

بِالْقَوْمِي إِتْنِي رَجُلٌ أَفْنَتُ الأَيَّامُ مُصْطَبِرِي
أَسْهَرْتَنِي الحَادِثَاتُ وَ قَدْ نَامَ حَتَّى هَاتَفَ الشَّجَرَ

(م. ن، ١٢٢/٢)

٤-٥: السّنة: نرى الشاعر أحياناً يشكو من السّنة للأحداث و النكبات الّتي حلّت به فيها.
فحينما أثقلته الهموم يجرّك أنيابه غضباً و يستهدف السّنة الّتي حدث الحادث فيها كما نرى في
رثاء الشيخ محمد عبده، يخاطب السّنة قائلاً: إنّها أشأم السّنوات، لأنّها سلبت من الشعب
رجلاً شجاعاً و خطيباً بارعاً و أذبلت و أذويت روضاً جميلاً. إنّها سنة مشؤومة أطفأت
مصاييح و نيراناً مضيئةً و أشعلت جمرات الحزن و الأسى على هذا الفقيّد :

فِيَا سَنَةَ مَرَّتْ بِأَعْوَادِ نَعَشِهِ لَأَنْتِ عَلَيْنَا أَشْأَمُ السَّنَوَاتِ
حَطَمْتَ لَنَا سَيْفًا، وَ عَطَلْتَ مَنِيرًا وَ أذَوَيْتِ رَوْضًا نَاضِرَ الزَّهْرَاتِ
وَ أطفأتِ نَبْرَاسًا وَ أَشعلتِ أَنْفُسًا عَلَى جَمَرَاتِ الحُزْنِ مُنطَوِيَاتِ

(م. ن، ١٤٦/٢)

١. اختلف العلماء في الذبيح من ولدي إبراهيم، فقيل هو إسحاق وقيل هو إسماعيل «إبراهيم، ١١٢/٢» و قد جاء في
الميزان: إنّ الذبيح غير إسحاق و هو إسماعيل عليهما السلام. « طباطبائي، ١٧/١٥٣ ».

٤-٦: العام: في حين آخر يستخدم حافظ كلمة «العام». كما نراه يجزن لموت الطبيبين الشهيرين «إبراهيم حسن باشا و محمد شكرى باشا» و يشكو من هذا العام لأنه لم يرع عهداً و ذماماً للأطباء إلا مائماً لهم كما نرى مائماً لهذين الرجلين اللذين كانا علمين من أعلام مصر و بكى على موتهما المصريون حتى الأهرام:

لَمْ يُرَعْ عِنْدَكَ لِلْأَسَاةِ ذِمَامٌ	لَا مَرْحَباً بِكَ أَيُّهَا الْعَامُ
لِلنَّافِعِينَ مِنَ الرَّجَالِ تُقَامُ	فِي مُسْتَهْلَكِ رُغْتِنَا بِمَاتِمِ
فِيكَ الرَّدَى فَبِكْتُهُمَا الْأَهْرَامُ	عَلَمَانِ مِنْ أَعْلَامِ مِصْرٍ طَوَاهُمَا
وَ أَصَبَتْ إِبْرَاهِيمَ وَ هُوَ إِمَامٌ	غَيَّبَتْ شُكْرِي وَ هُوَ نَابَهُ عَصْرِهِ

(م. ن، ٢/١٨٦)

النتائج

١: إن شعر الشكوى كثير في شعر المحدثين لتأثر الشعر العربي الحديث بأوضاع العصر السياسية و الإجتماعية و لتأثره بالترعة الحزينة للشاعر الأوروبي الذي كان أكثر منه معاينة لطغيان الحضارة المادية.

٢: أثرت أوضاع مصر السياسيّة و الاجتماعيّة و ... في شعر حافظ الشاكي. نرى المجتمع في عصر الشاعر مشحوناً بحروب و ضغوط على المصريين من جانب الغربيين. و كانت الأوضاع الإجتماعية مزرية تتأرجح بين الفقر و الجهل إلى جانب الظلم من قبل الحكّام.

٣: يعتبر حافظ إبراهيم في طليعة شعراء عصره في الشكوى و هو شاعر الشكوى بغير منازع. ٤: إن المحركات الأساسية لشكاوي حافظ إبراهيم ترجع إلى عدّة أمور: الف: إنّه عاش فقيراً و بائساً و النكبات التي تعاقبت عليه في حياته كان لها تأثير شديد في نفسه، فمن فقدان أبيه و هو طفل، إلى ضيق ذات اليد، إلى بؤسه في بيت خاله، إلى إخفاقه في المحاماة و إلى غير ذلك جعله صاحب نفس شكّاء. ب: إنّه خلق أديباً قلق النفس و ليس له صبر على تحمل المشاق ج: حرمانه من عطف أمير أو سلطان حيث لم يبلغ المكانة التي يبتغيها فانضم هذا الحرمان إلى ألوان الشقاء التي عاناها د: المشاكل الاجتماعيّة كالفقر هـ: المسائل السياسيّة كالاحتلال و الظلم.

- ٥: حينما ندرس شكاي حافظ نجد فيها عمق العواطف و صدقها، لأنه ذاق مرارة الحياة من صغره، فإنه قد استطاع أن يعبر تعبيراً صادقاً عن أحزانه و من جانب آخر إنه بحكم نشأته في الناس خالط بسواد الشعب و صور آلامه و اهتم بالفقر و الظلم في المجتمع.
- ٦: إن حافظاً يشكو من شقائه و شقاء أبناء آدم أبي البشر(ع). أحياناً يغلب التشاؤم علي الشاعر و يجد أن الموت أهون تجرعاً على من تجرع هذا العيش المرّ، فيتمنى الموت خلاصاً من الشقاء و يسخط على من أسهم في حفظ استمرار الحياة فوق الأرض.
- ٧: نجد الشاعر في حديثه عن الفقر، يشكو من الإملاق طوال حياته في مصر أو في السودان و يهتم بالأيتام اهتماماً بالغاً و يشكو من الفقر في المجتمع.
- ٨: إن حافظاً يشكو من الظلم في المجتمع و يستهدف المحتلين و يندد بسياستهم لعدة أسباب: ١: حادثة دنشواي ٢: سلب خيرات البلاد ٣: طعن الإنجليز على المصريين ٤: عدم الجلاء عن مصر ٥: إدعاء الأجانب الكاذب بالحياد ٦: الحروب التي أثارها الأجانب في الشرق و أيضاً يشكو من الحكام المصريين لظلمهم و سوء سياستهم.
- ٩: الجديد الذي نعثر عليه في موضوعنا هذا هو الشكوى من الأجانب، حيث الشاعر يستهدف المحتلين لعدة أسباب. والإنجليز هم الذين يشكلون قطب الرحى في الشكوى من الأجانب عند حافظ و قلما نجد شاعراً قد شكوا من الأجانب و الإنجليز قبل حافظ إبراهيم.
- ١٠: حالت ظروف حافظ أحياناً دون الجهر بكراهيته الإنجليز في شكاويه. كان من الطبيعي أن لايجهر بكراهيته، متى كان الجهر و النطق مجلبة للشر.
- ١١: حافظ يشكو من الدهر، فشكوى الدهر عنده وسيلة للتنفيس عن معاناته و للتخفيف من وطأة آلامه. نجد أن الخطاب للدهر يتنوع عنده و يأخذ أشكالاً شتى؛ منها: «الدنيا، أبو الليل، الأيام، الزمان، السنة، العام».
- ١٢: إن الشاعر يشكو من الدهر لعدة أسباب؛ منها: الف: يعتقد حافظ بأن الدهر سبب فشله في أمره ب: يعتقد بأن هذه الدنيا خدعته و تركته في النهاية ج: يرى الشاعر تماون الأيام بالبشر ٥: يشكو من السنة و العام للأحداث و النكبات التي حلت به فيهما.

المصادر و المراجع

- القرآن الكريم.
- آباد، مرضيَّة: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي(٢). طهران، سمت، ط١، ١٣٨٦هـ - ش.
- إبراهيم، حافظ: الديوان. ضبطه و صححه و شرحه و رتبه أحمد أمين و أحمد الزين و إبراهيم الأبياري، بيروت، دار العودة، لاط، ٢٠٠٤م.
- ابن أبي سلمى، زهير: الديوان. شرحه و قدّم له الأستاذ علي حسن فاعور، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٩٨٨م.
- ابن منظور: لسان العرب. نسقه و علّق عليه و وضع فهارسه علي يسري، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ.
- البارودي، محمود سامي: الديوان. حققه و ضبطه و شرحه علي الجارم و محمد شفيق معروف، بيروت، دار العودة، لاط، ١٩٩٨م
- البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث: بيروت، دار نظير عبود، لاط، ١٩٨٨م.
- البوصيري، محمّد بن سعيد: الديوان. بيروت، دار المعرفة، ط١، ١٤٢٨هـ..
- الجندي، عبد الحميد سند: حافظ إبراهيم شاعر النيل: القاهرة، دار المعارف، ط٤، لاتا.
- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح تاج اللغة و صحاح العربيّة. تحقيق أحمد عبد الغفار عطّار، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٩٠م.
- الحرّ، عبد المجيد: أحمد شوقي أمير الشعراء و نغم اللحن و الغناء. دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.
- حسين، طه: حافظ و شوقي. القاهرة، مكتبة الخانجي، لاط، لاتا.
- الشريف الرضي، محمّد بن الحسين: الديوان. بيروت، دار صادر، لاط، لاتا.
- ضيف، شوقي: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول و الامارات، الجزيرة العربيّة، العراق، ايران)، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٩٠م.

- الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، قم، منشورات جامعة المدرسين في الحوزة العلمية، لاط، لاتا.
- طليمات، غازي والأشقر، عرفان: الشعر في العصر الأموي. دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٢٩هـ
- طليمات، غازي والأشقر، عرفان: الشعر في عصر النبوة و الخلافة الراشدة، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٢٨هـ..
- عبد الله، السعيد محمود: حافظ إبراهيم دراسة تحليلية لسيرته و شعره، إسكندرية، دار الفارابي، لاط، لاتا.
- الفاحوري، حنا: الجامع في تاريخ الأدب العربي «الأدب الحديث»، بيروت، دار الجليل، ط١، ١٩٨٦م.
- الفاحوري، حنا: الموجز في الأدب العربي و تاريخه. بيروت، دار النهضة، ط٣، ١٤٢٤هـ.
- قدورة، زاهية: تاريخ العرب الحديث. دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، ١٤٠٥هـ..
- معلوف، لويس: المنجد في اللغة. طهران، انتشارات اسلام، ط٣٥، ١٣٨٨
- الورقي، سعيد: لغة الشعر العربي الحديث مقوماتها الفنيّة وطاقاتها الإبداعية. بيروت، دار النهضة العربية، ط٣، ١٩٨٤م.
- نوفل، يوسف: حافظ إبراهيم شاعر الشعب و شاعر النيل. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٧م.
- الهلال، محمد غنيمي: النقد الأدبي الحديث. بيروت، دار العودة، لاط، ١٩٨٧م.
- هيئة المعجم: معجم البابطين لشعراء العرب المعاصرين «دراسات في الشعر العربي المعاصر»: الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ط١، ١٩٩٥م، المجلد السادس.

المقالات

- أبوبكر، عيسى ألي: «ملامح الفقر في شعر حافظ إبراهيم». دون اسم المحلّة، نيجيريا، جامعة الورن قسم اللغة العربية، لا عدد، لاتا، الموقع: (www.unilorin.edu.ng/publications)
- أنس: ونام محمد سيّد أحمد. «الشكوى في شعر ابن نباته». مجلّة جامعة أمّ القرى لعلوم اللغة و آدابها، مكّة المكرّمة، العدد ١، ١٤٣٠هـق، الموقع: (www.uqu.edu.sa)
- بيراني شال، علي و أميدوار، احمد: «تأثير آراء محمد عبده في أشعار حافظ إبراهيم الاجتماعية»، مجلّة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية و آدابها فصلية علمية محكمة، طهران، العدد ١٢، السنة الخامسة، ١٣٨٨هـش.

الرسائل

- الشهري: ظافر عبدالله علي. الشكوى في الشعر العربي حتّى نهاية القرن الثالث الهجري، «رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي» مكّة المكرّمة، جامعة أمّ القرى، كليّة اللغة العربية و آدابها، ١٤١١هـ.
- العرفج، أحمد عبدالرحمن حسين: شعرا الشكوى عند المتنبي «رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي»، مكّة المكرّمة، جامعة أمّ القرى، كليّة اللغة العربية و آدابها، ٢٠٠٦م.

شکوه از شقاوت و فقر و ظلم و روزگار در شعر حافظ ابراهیم

علی پیرانی شال^۱، علی حسین غلامی یلقون آفاج^۲

چکیده

شکوائیه تعبیری از رنجهای ناشی از مشکلاتی است که انسان در زندگی فردی و اجتماعی خود با آن روبه‌رو می‌شود و آن را به زبان می‌آورد تا تسکین دردهایش باشد. شکوائیه یکی از اغراض شعری ادبیات عربی و از وسیع‌ترین میدان‌هایی است که تخیل شاعران در آن جولان می‌دهد. یکی از مهم‌ترین مضمون‌هایی که شاعران عصر عباسی به آن می‌پرداختند شکوه از زمان بود به طوری که فن دهریات (شکایت از زمان) در این عصر شکل گرفت.

فن شکوائیه را در شعر اکثر شعراء عصر حدیث نیز می‌یابیم. حافظ ابراهیم در میان شاعران زمان خود در این فن بر دیگران مقدم است. او طعم یتیمی را چشید و در زندگی دچار پاره‌ای از مشکلات شد که این مشکلات تاثیر زیادی بر روح او گذاشت و او را نالان ساخت. او از فقر فردی و اجتماعی شکوه می‌کند و از اقدامات بیگانگان همچون حادثه «دنشوای»، چپاول ثروت‌های کشور، طعنه زدن بیگانگان بر مصریها، جنگ‌هایی که به وجود آوردند و... می‌نالد و شکوه از روزگار را وسیله‌ای برای تقلیل غم‌هایش قرار می‌دهد و روزگار را با نام‌های مختلفی در شعر خویش می‌آورد. شکوائیه در اشعار حافظ جایگاه ویژه‌ای دارد. او پرچمدار شکوائیه عصر خویش و شاعر بی‌رقیب این عرصه است.

این بحث بر آن است که به شکایت از شقاوت و فقر و ظلم و روزگار در شعر حافظ ابراهیم پردازد و ضمن روشن ساختن این شکوه‌ها به برخی از علل آنها نیز اشاره کند و در این راستا مقاله بر اساس روش وصفی تدوین شده است.

کلیدواژه‌ها: شکوائیه، حافظ ابراهیم، فقر، ظلم، روزگار.

1. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه خوارزمی (تربیت معلم تهران)

2. کارشناس ارشد زبان و ادبیات عربی دانشگاه خوارزمی (تربیت معلم تهران)